

عوامل التقدم عبر التاريخ

2005/08/02

التاريخ هو قصة التطور المجتمعي عبر العصور، وسجل الأحداث الأهم التي صنعها وعاشها الانسان على طريق التقدم والرفي. ولقد ولدت فكرة التقدم في عصر الزراعة بعد ان إستطاع الانسان إنتاج ما يزيد عن حاجته من الغذاء، حيث اصبح إمكانية تخصيص جزء من وقته للتفكر في امور دنياه وحياته، مما قاده فيما بعد الى إكتشاف البعض من اسرار الحياة والكون وخصائص الأشياء. ويشير التاريخ الانساني وإستنتاجاتي من دراسته أن التقدم والرفي المجتمعي، بشقيه المادي وغير المادي، جاء أساسا نتيجة لفعل أربعة عوامل رئيسية :

1. حدوث اكتشافات وتطورات تكنولوجية هامة، خاصة في مجال أدوات وأنماط واساليب الانتاج، ووسائل الانتقال والاتصال، وجمع وتخزين وتحليل المعلومات.
2. حدوث تحولات اجتماعية وثقافية عميقة، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين الناس، وفي الموقف من العمل ومن الوقت ومن الاخر.
3. حدوث تراكم معرفي، خاصة في فهم الطبيعة وقوانينها وخصائص الاشياء وأسرار الحياة والكون.
4. نزوع الانسان الدائم نحو الحرية، خاصة الحرية السياسية والحرية الفكرية.

ترتبط هذه العوامل بعضها ببعض بعلاقة ديناميكية دائمة التطور والتغير، إذ ليس بالامكان حدوث تطور تكنولوجي مثلا دون ان يؤثر ذلك على الثقافة والاقتصاد والعلوم وحياة الانسان عامة. وحين تتطور التكنولوجيا يستخدمها العلم لتطوير معاملته وبناء مختبرات حديثه، وحين يتقدم العلم يستخدمه الصناعيون لتطوير تكنولوجيا جديدة، خاصة ما يخدم منعا حاجة الانسان وتطلعاته الاستهلاكية.

ورغم هذه العلاقة المؤسسة على التأثير المتبادل بين عوامل التقدم، فان لكل عامل منها ميزاته الخاصة به. فالثقافة تتميز بالتطور من خلال التغير والاحلال، أي إحلال عادات وعلاقات اجتماعية جديدة وتقاليد عمل مختلفة ومواقف مجتمعية غير تقليدية محل العادات والتقاليد والمواقف القديمة. وهذا يعني انه ليس بالامكان حدوث تطور وتقدم ثقافي حقيقي دون حدوث تلاقح وتحويل ثقافي من شأنه إعادة هيكلة الثقافة التقليدية على أسس جديدة متوافقة مع طبيعة أنماط الانتاج غير التقليدية. اما العلم فيتميز بخاصية التراكم والتخصص والانتشار البطئ، وذلك لان احتياجاته المالية والمؤسسية تتجاوز في غالبية الاحيان والحالات امكانيات معظم الشعوب. أما التكنولوجيا فتتميز بخاصية الاحلال والتراكم والانتشار السريع في آن واحد، وذلك لان حيادية معظم الادوات والاساليب التكنولوجية جعل بإمكانها خدمة مصالح المجتمعات المختلفة رغم تباين ظروف حياتها ودون جرح حساسياتها الثقافية. لكن قدرة المنتجات التكنولوجية على توفير المزيد من الراحة والمتعة والسلع للانسان جعلها عروسا جميلة يخطب الجميع ودها دون وعي بان الاقتراب منها يسحرهم ويفرض عليهم أنماط ثقافية جديدة غير مألوفة كثيراً ما تتعارض من الموروث من القيم والتقاليد والعادات القديمة وتعمل على اضعافها وتقويضها من الداخل. وهذا يعني انه ليس بالامكان استخدام تكنولوجيا حديثة مع الحفاظ على الثقافة التقليدية ودون إضطرابها للتطور من خلال تلقحها بعادات وتقاليد جديدة وتطعيمها بقيم غير تقليدية.

اما نزوع الانسان للحرية فيتميز بقدرة كبيرة على التواصل عبر الاجيال والعصور لان حاجة الانسان للحرية تأخذ اشكالا وصورا مختلفة كلما إنتقل الانسان من عصر حضاري الى عصر حضاري اخر اكثر تعقيدا وديناميكية.

إن تواجد هذه العوامل الاربعة يعتبر ضرورة اساسية لحدوث التقدم، اذ لا يمكن حدوث التقدم المجتمعي في غيابها او في غياب معظمها. وعلى سبيل المثال، غابت عن حياة المجتمع القبلي عوامل التراكم العلمي والتطور الثقافي، وكان التطور التكنولوجي ضعيفا للغاية. اما مفهوم الحرية فلم يكن له وجود بالمعنى المتعارف عليه اليوم لان القبلي عاش في مجتمع بلا طبقات وكان حرا يتنقل من مكان لآخر دون حواجز سياسية أو معوقات اجتماعية. ولهذا عاش المجتمع القبلي حوالي مئة الف سنة دون ان

يطراً على حياته اي تغير يذكر.

أما المجتمع الزراعي، وحيث ولدت فكرة التقدم، فإن الحياة فيه شهدت تغيراً طفيفاً بسبب حدوث تطورات تكنولوجية وإرساء أسس بعض العلوم وإحساس البعض بفقدان الحرية. إذ إن إقسام المجتمع الزراعي إلى طبقتين، طبقة ملاك الراضي وطبقة الفلاحين الذين عاش معظمهم كعبيد، كان سبباً في ظهور حاجة الإنسان للحرية. لكن دافع الحرية لدى الفلاح كان ضعيفاً للغاية بسبب ما كان يعانيه الفلاح من جهل وما وقع عليه من ظلم من قبل الأقطاعيين وكبت من قبل المؤسسة الدينية. رغم ذلك ظهرت في أواخر ذلك العصر الكتابة وعلم الحساب والحسابات الفلكية وبدأت عمليات تدوين السجلات، خاصة ما كان يتعلق منها بالحروب والملوك والأوبئة والكوارث الطبيعية. لذلك عاش المجتمع الزراعي حوالي عشرة آلاف سنة دون أن يشهد حدوث تطور حقيقي في حياته أو مكونات ثقافته الرئيسية أو نمط إنتاجه.

في عصر الصناعة حصل الإنسان المنتمي لمجتمع صناعي على قدر كبير من الحرية السياسية، وذلك بعد أن كان قد حصل على حريته العقائدية والاجتماعية. لكن المجتمع الجديد الذي أفرزه نمط الإنتاج الصناعي كان مجتمعاً طبقياً فرضت ظروف نشئته وتطوره اتساع فجوة الثروة والقوة بين الناس باستمرار، وتبلور وعي طبقي لدى فئات المجتمع المختلفة، مما تسبب أحياناً في وقوع الصراع بين الطبقات. لكن الوعي الطبقي لدى الأغنياء والعمال وبناء الطبقة المتوسطة أدى فيما بعد إلى خلق توازن داخل المجتمع وقاد تدريجياً إلى تحديد الواجبات والحقوق والاعتراف بالحرية العامة والخاصة، ولكن على حساب المساواة والعدالة الاجتماعية. وهذا ساهم بدوره في بقاء شعلة الحرية متقدة دون توقف.

إن تأسيس الصناعة على الآلة وعمليات التصنيع ساهم في أحداث ثورة علمية وتكنولوجية بلا حدود. إذ أن التطلع الدائم نحو رفع إنتاجية العامل والآلة، والعمل الدؤوب على تحسين نوعية المنتجات وإنتاج بضائع جديدة، واستخدام العلوم والفنون التكنولوجية لإنتاج معدات وأدوات تساهم في تحسين نوعية ومستوى حياة المواطن وتعزيز قدرته على التمتع بوقته وماله جعل عملية التقدم المادي هدفاً في حد ذاته. ولقد ترتب على ذلك حدوث تراكم كبير وتزايد متنامي في المعارف بكافة أشكالها واستخداماتها، وذلك إلى جانب حدوث تطورات وتحولات ثقافية كبيرة وعميقة. ومع تسارع عمليات التراكم المعرفي والانتشار التكنولوجي والتوسع الاقتصادي كان من الطبيعي أن يتقدم المجتمع الصناعي على سواه من مجتمعات أخرى وأن يفرض على تلك المجتمعات أن تتحول إلى مجتمعات متخلفة نسبياً عن العصر وتابعة له تبعية علمية وتكنولوجية واقتصادية وثقافية وسياسية وأمنية.

إن على من يتساءل عن سبب تخلفنا عن العصر أن يبحث عن مدى وسبب غياب عوامل التقدم من حياتنا، وأن على من يريد أن يضع مجتمعاتنا العربية على طريق الرقي والتقدم أن يعمل على تأسيس عوامل التقدم الرئيسية كجزء أساسي من ثقافتنا وحياتنا اليومية. إن حرية الإنسان وتقدم مجتمعه لن يتحققا دون حدوث تطور ثقافي وتراكم معرفي وتكنولوجي وتحرر سياسي وإفتراح اجتماعي ونماء اقتصادي .